التضمين ومقاصده النحوية والبلاغية في القرآن الكريم

The Inclusion and its Grammatical and Rhetorical Intentions in Qur'an

أميرة حسن علي عبد الرحمن
جامعة النيلين- عمادة القبول والتسجيل - مدير إدارة القبول والتسجيل

المستخلص:

التضمين هو إشراب لفظ معنى لفظ آخر وإعطائه حكمه. وهو أن يؤدي فعل أو ما في معناه في التعبير مؤدى فعل او في معناه فيعطى الأول حكم الثاني في التعدية واللزوم، وهو قياسي لا سماعي لا سماعي بشروط ثلاثة:تحقيق المناسبة بين الفعلين ، وجود قرينة تدل على مناسبة الفعل بالآخر ويؤمن معها اللبس و ملائمة التضمين للذوق البلاغي العربي

وفائدة التضمين الإيجاز والإيجاز مقصد من مقاصد البلغاء وأصل من أصول العربية وهو مبحث من مباحث علوم البلاغة. قرينته تعدية الفعل بالحرف وهو يتعدى بنفسه، وتعديته بنفسه وهو يتعدى بالحرف. والغرض منه إثراء اللغة العربية، وذلك بتعدد أساليب التعبير وصوره. ومجاله هو حروف المعاني والمجاز اللغوي وهدفه استجلاء حروف الجر في آي الذكر الحكيم وذلك بوقوع الحرف في غير موضعه وهو من محاسن اللغة وبدائع الإيجاز فيها ويعتبر التضمين سمة من سمات الخطاب القرآني المتعددة.

Abstract

The inclusion is given a structure another meaning with definite rules.

That means a verb may act in the form of another verb with the same grammatical rules and with the same meaning and may be transitive and intransitive verb and of standard form and not audible with three conditions: To make relations between the two verbs, to find a link to show the relation between the two verbs and avoid doubtful intentions, and the compliance of inclusion to the Arabian rhetorical taste.

The benefit of inclusion is the concise form which is a rhetorical intention and a source of Arabic language and a form of Arabic topic and research.

The sameness is the transitive act with a letter and transitive by itself and transitive with itself when transitive by a letter. And the variety of grammatical metaphors exposes the beauty of Arabic language for the different expressions. And the aspects of beauty are in the letters of meanings and the linguistic metaphors. Ant the objectives are found in the letters (the prepositions) used in the Holy Qur'an as the letter is used in another place than its normal one to

make the beauty of language relevant and clear with the splendid concise form of expression. The inclusion is considered one of the most magnificent forms of Qur'anic expressions.

المقدمة

الحمد لله الذي أوعد من أسرار الإعجاز في كتابه ما لا تستوعبه العقول ولا تستنفذه كثرة الدراسات ولا يبلى جديده مر الليالي والسنين.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم العربي المدني الهاشمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

يعتبر التضمين من الموضوعات المهمة التي يتوقف عليها فهم معاني القرآن واستيعاب مقاصده ومعرفة دقائق أسراره وبلاغته وبراعة نظمه.

إذ إنّ مقاصد الكلام على اختلاف صنوفه مبنية على معاني حروفه.

وإن الحروف قد تتشرب معاني أدوات أخرى وتأخذ معنىً غير المعنى الحقيقي لها يفهم من السياق وعن طريق التعليق.

وبما أن معاني الأدوات علم نشأ في ركاب القرآن الكريم ثم شبَّ وترعرعَ واستقلَّ عن القرآن الكريم.

فقد رأيت أن يكون محور الدراسة القرآن الكريم الذي يجب أن تكون دراسته محل اهتمام جميع الباحثين المسلمين.

إن موضوع التضمين يعتبر مسألة عسيرة ومتشعبة إذ يفضي إلى قضايا متعددة في اللغة كقضية التعدية واللزوم والحقيقة والمجاز ودلالات الألفاظ مما يتطلب إمعان نظر وتغلغل في دواخل التراكيب.

حيث تتبعت الباحثة الآيات المشتملة على التضمين في القرآن الكريم وأحصتها ثم قامت بدراسة شاملة لجوانبه وجمعت شتاته من كتب النحو والبلاغة والتفسير، تقف على آراء العلماء وإعراب الآيات القرآنية مستشهدة بها ذاكرة لبعض الشواهد الشعرية عند العرب.

فالتضمين مصطلح يتجاذبه اللغويون والنحاة والبلاغيون وعلماء العروض والمفسرون كل حسب رؤيته.

أهمية الورقة:

- التعمق في دراسة القرآن الكريم وفهم معانيه واستيعاب مقاصد تراكيبه وبراعة نظمه ودقائق أسراره.
- الاهتمام بالدراسة النحوية الأسلوبية باعتبارها أداة لفهم القرآن الكريم ولغة العرب.

الأهداف:

- بيان مفهوم التضمين وآراء العلماء فيه.
- توضيح علاقة التضمين بالمجاز اللغوي.
- تأكيد أهمية علم النحو والبيان العربي وصلتهما بعلوم القرآن.

المنهج:

المنهج المتبع في هذه الورقة هو المنهج الوصفي التحليلي

النتائج:

- إن التضمين مصطلح يتجاذبه العلماء كلٌّ حسب رؤيته.
- يأتي التضمين للإيجاز في اللغة الذي يعتبر مقصد من مقاصد البلغاء وأصل من أصول الأساليب اللغوية.
- الغرض من التضمين استجلاء أسرار حروف الجر في آي الذكر الحكيم ووقوع الحرف في غير موضعه.

التضمين ومقاصده النحوية والبلاغية في القرآن الكريم

التضمين لغة:

يقول ابن منظور: الضمين هو الكفيل، ضمن الشيء ضمنا أو ضمانا وضمنه إياه أي كفله.

ونقول فلان ضامن وضمين على وزن ناصر ونصير، ويقال ضمنت الشيء أضمنه ضمانا فانا ضامنه فهو مضمون[(1)].

وفي الاصطلاح:

يطلق ويراد به غير معنى واحد ومن معانيه أن يكون عيباً من عيوب القافية.

قال الخطيب التبريزي: "ومن عيوب الشعر الإقواء والإكفاء والإبطاء والإسناد والتضمين ولإيجازه[(2)].

وحد التضمين هنا أن تتعلق قافية البيت الأول بالبيت الثاني.

كقول النابغة:

وَهُم وَرَدوا الجِفارَ عَلى تَميمٍ وَهُم أَصحابُ يَومِ عُكاظَ إِنّي

شَهِدتُ لَهُم مَواطِنَ صادِقاتٍ أشهدت لهم بِوُدَّ الصَدرِ مِنّي[(3)]

فالبيت الأول لا يستقل بمعناه إنما يعتمد على البيت الثاني لإتمام المعنى، ويسمى ذلك تضمينا.

فقد تناوله اللغويون بقولهم: إن أول حيز له هو أدوات المعاني أو حروف الصفات.

وذلك على حدْ تعبير ابن قتيبة: "إن الحرف "في" يتضمن معنى "على"

كقوله تعالى: (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ)[(4)]

أي على جذوع النخل.

ومن ذلك قول سويد بن أبي كاهل:

(1) لسان العرب، ابن منظور، الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد ابن منظور بن مكرم بن الإفريقى، دار صادر – بيروت، بدون، تاريخ طبع باب الضاد مادة "ضمن"، ج 4، ص 261.

(2) الكافي في علم العروض والقوافي، للخطيب التبريزي، للخطيب التبريزي، تحقيق الحساني عبد الله، بيروت عالم المعرفة، 1900 م ص 160.

(3) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهي، دار المعارف، مصر، 1977 م، ص 123.

(4) سورة طه، الآية 71.

هُم صَلَبوا العَبدِيَّ في جَذعِ نَخلَةٍ فَلا عَطَسَت شَيبانُ إِلّا بِأَجدَعا [1]

اختلف البصريون والكوفيون في هذا الباب اختلافاً كبيراً:

وذلك في قول ابن الأنباري:

"فالبصريون يمنعون إنابة بعض الحروف الجارة عن بعض قياسا، كما لا تنوب حروف الجزم والنصب عن بعضها البعض وقولهم ذلك محمول على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف أو على الشذوذ والنيابة" [2].

والكوفيون يجوزون به نيابة بعض حروف الجر عن بعضها قياسا وقد رجح ابن هشام مذهب الكوفيين فقال: "مذهبهم أقل تعسفاً...

ويقول: ذهب الكوفيون إلى أن "مِن" الجارة يجوز استعمالها في الزمان والمكان [3].

وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز استعمالها في الزمان واحتجوا بقوله تعالى: (لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)[4]

وقال زهير:

لِمَنِ الدِيارُ بِقُنَّةِ الحِجرِ أَقوَينَ مِن حِجَجٍ وَمِن شَهرِ [5]

أما ابن جني فيرى أن التضمين اتساع في استخدام الألفاظ بأن يكون الفعل في معنى ذلك الآخر، لذلك جيء به مع الحرف المعتاد، فهو عنده مجاز مرسل؛ لأن استعمال لفظ في غير معناه لعلاقة بينهما [6].

رأي النحاة في التضمين:

يمثله ابن هشام في قوله:

"إن الكلمة المضمنة مستعملة في حقيقتها ومجازها، بأن تؤدي الكلمة مؤدّى كلمتين حقيقة ومجاز وذلك تأتياً على رأي الأصوليين ممثلاً عند العز بن عبد السلام في كتابه فقد مثل بقوله تعالى: (لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [7]

إذ ضمن يؤلون معنى يمتنعون من نسائهم بالحلف وليس حقيقة الإيلاء إلا الحلف، فاستعماله للإيلاء في معنى الامتناع عن وطء المرأة إنما هو بطريق المجاز باب إطلاق السبب على المسبب، فقد أطلق فعل الإيلاء مراد

(1) ديوان سويد بن أبي كاهل، ص 54.
(2) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنبار، المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى 1424هـ- 2003م ، ج 2، ص 516.
(3) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق مازن المبارك، ومحمد علي، ط 5، مؤسسة الصادق 378 ه ، ج 1، ص 151.
(4) سورة التوبة، الآية 108.
(5) ديوان زهير بن أبي سلمى: شرحه وقدم له: أ. علي حسين فاعور، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1، 1408-1988م ، ص 86.
(6) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة ، ج 2، ص 308.
(7) سورة البقرة، الآية 226.

به ذاناك المضيان جميعاً وهو جميع بين الحقيقة والمجاز [1] .

وهو أن يتوسع في استعمال لفظٍ توسعاً يجعله مؤدياً معنى لفظ آخر مناسب له فيعطى الأول حكم الثاني في التعدية واللزوم.

وهو يعد من باب حمل على ضده أو على نظيره وذلك نحو :

قول القحيف العجلي:

إذا رَضِيَت عليَّ بنو قُشَيرٍ لعَمرُ اللهِ أَعجَبَني رضاها [2]

محملاً فيه "رضى" على "سخط" ضده المتعدي بـ"على"

والمعنى إذا سخطت علي بنو قشير.

ومن الحمل على النقيض قوله تعالى: (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) [3] .

"سبع عجاف" محمولة على نقيضها وهي "سبع سمان".

رأي علماء البلاغة في التضمين:

يرى علماء البلاغة أن التضمين من مجاز الحذف ويعتبر المعنى الحقيقي قيداً وهذا هو رأي الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى: (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[4]

أي لا تضموها إليها آكلين، ويقول: أن الفعل المذكور مستعملا في معناه الحقيقي مع حذف حال مأخوذ من الفعل الآخر بمعونة القرينة اللفظية

نحو قولك: "أحمد إليك فلانا" ومعناه أحمده منهياً إليك حمده.

وقد يعكس كما في قوله تعالى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) [5]

أي يعترفون به مؤمنين، ويؤكد هذا الرأي قول الشريف في حاشيته على الكشاف فيكون من الحقيقة التي قصد منها معنى آخ يناسبها ويتبعها في الإرادة ذلك نحو قوله تعالى: (لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ)[6]

كأنه قال: لتكبروا الله حامدين على ما هداكم.

كما يرون أن التضمين من الكناية أي لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، فالمعنيان مردان على طريقة الكناية فيراد المعنى الأصلي توصلا إلى المقصود.

(1) مجلة المجمع اللغوي بالقاهرة، دورة الانعقاد الأولى، ص 206.
(2) وهو من شواهد ابن هشام في مغني اللبيب "رقم 225".
(3) سورة يوسف، الآية 43.
(4) سورة البقرة، الآية 188.
(5) سورة البقرة، الآية 3.
(6) سورة البقرة، الآية 185.

والتضمين خروج عن الأصل، وقد ذكر في الإنصاف في مسائل الخلاف عن هناك ألفاظاً خرجت عن الأصل وتضمنت معاني آخر، وذلك نحو قولك: "أحسن بزيد" لفظه الأمر وهو بمعنى التعجب، وقولك: رحم الله فلاناً" لفظه لفظ الخبر، وهو في المعنى دعاء [1]

ومنه قوله تعالى: (لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ)[2]

لفظه لفظ الخبر، ويراد به النهي

وقوله تعالى: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)[3]

أي انتهوا لفظه لفظ استفهام والمراد به الأمر

وقوله تعالى: (فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا)[4]

لفظه لفظ أمر، والمراد به الخبر

ومنه قوله تعالى: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ)[5]

أي ليرضعن أولادهن لفظه لفظ الخبر والمراد به الأمر.

أُختلف في التضمين أهو قياسي أم سماعي؟

فقيل أنه سماعي وهو ما سمع من كلام العرب وهو أصل من أصول العربية.

وقيل إن التضمين النحوي قياسي عند الأكثرين وإن التضمين البلاغي قياسي بإجماع النحويين.

وباستعراض آراء العلماء في التضمين يتضح أن:

التضمين هو إشراب لفظ معنى لفظ أخر وإعطاءه حكمه.

وهو أن يؤدي فعل أو في ما معناه التعبير مؤدى فعل أخر أو ما في معناه فيعطى حكمه في التعدية واللزوم.

فائدة التضمين:

الإيجاز وذلك بأن تؤدي كلمة معنى كلمتين والكلمتان مقصودتان معا قصدا وتبعا.

والإيجاز مقصد من مقاصد البلغاء وأصل من أصول الأساليب اللغوية.

وهو مبحث مهم من مباحث علوم البلاغة العربية قرينته تعدية الفعل بالحرف وهو يتعدى بنفسه، وتعديته بنفسه وهو يتعدى بالحرف.

الغرض من التضمين:

إثراء اللغة العربية بتعدد أساليب التعبير.

وصور ومجال التضمين هو التعدي وتناوب حروف المعاني والمجاز اللغوي ومخالفة مقتضى الظاهر في التعدية واللزوم.

(1) الإنصاف في مسائل الخلاف، ابن الأنباري، ج 2، ص 578.
(2) سورة الطلاق، الآية 6.
(3) سورة المائدة، الآية 91.
(4) سورة مريم، الآية 75.
(5) سورة البقرة، الآية 233.

هدف التضمين:

- استجلاء أسرار حروف الجر في آي الذكر الحكيم وذلك بوقوع الحرف في غير موضعه مما يتطلب الدقة في الوقوف على سر تسلّله إلى هذا الموضع واستراق السمع للوصول إلى ما يهمس به من ثواني المعاني.
- فهو محاولة لإيجاد وجه يصح معه وقوع الحرف في غير مكانه وسر بلاغة عدول ذلك الحرف من موقعه.
- وهو من محاسن اللغة وبدائع الإيجاز فيها
- وكثر وروده في الكلام المنثور والمنظوم فيه، يدل على أنه أصبح من الطرق المفتوحة في وجه كل ناطق بالعربية متى ما حافظ على شرطه

وهو وجود المناسب بين اللفظين وإلا كان باطلا.

فللتضمين صلة بقواعد الإعراب من جهة تعدي الفعل ولزومه.

وصلة بعلم البيان من جهة التصريف من معنى الفعل وعدم الوقوف به عند حد ما وضع له.

ويعتبر التضمين سِمة من سِمات الخطاب القرآني المتعددة.

مقاصد التضمين النحوية:

اتضح جليا من خلال تعريفنا للتضمين إنه من الموضوعات المهمة التي يتوقف عليها فهم معاني القرآن، واستيعاب مقاصده ومعرفة دقائق أسراره وبلاغة وبراعة نظمه.

ذلك أن مقاصد الكلام على اختلاف صنوفه مبنية على معاني حروف، وأن الحروف قد تتشرب معاني أدوات أخرى وتأخذ معناها ويفهم ذلك من السياق وتعليق الجمل.

لذلك نرى أن حروف المعاني مبحث مهم يتوقف عليه إبراز المقاصد والأغراض النحوية والدلالية في الجمل والتراكيب وفيها تكمن أسرار النظم.

وبما أن مجال التضمين هو حروف المعاني وغرضه هو استجلاء أسرار الحروف في الذكر الحكيم بها نقف على المعاني الثانية للقرآن الكريم كشفاً لإعجاز النظم وبراعة التصوير، فكانت حروف المعاني مكمن مقاصد التضمين وأغراضه النحوية.

وحسبنا أن نعلم كيف يغير الحرف معنى ما تعلق به ويقلب دلالاته إلى النقيض منها، حتى ليصير للفظ الواحد فعلا كان أو اسما أكثر من معنى حسب الحرف الواصل له.

فهذا الفعل "سمع" يتعدى بنفسه ليفيد معنى إدراك الأصوات.

ويتعدى "بمن، وعن، واللام، وإلى" فيتسع لمعاني وأغراض تتلاقى وتتباين طبقا للحرف المتعدي به.

يقول الخطابي[1] : "فإذا قلت سمعت منه كلاماً أردت سمعاه من فيه، وإذا قلت: سمعت عنه علماً، كان ذلك عن بلاغ، وإذا تعدى بـ"إلى" إفادة حسن الإصغاء لما في "إلى من معاني التوجه إلى الشيء والقصد إليه.

كما في قوله تعالى: (لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ)[2]

قال الزمخشري[3]: فإن قلت: "أي فرق بين سمعت فلاناً يتحدث وسمعت إليه يتحدث وسمعت حديثه، وإلى حديثه.

قلت: "المعدى بنفسه يفيد الإدراك، والمعدى بـ "إلى" يفيد الإصغاء مع الإدراك، ويتعدى باللام فيكتسب من معنى الاختصاص فيها إيثار المسموع واختصاصه بالقبول والتسليم.

كما في قوله تعالى: (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)[4] ، أي فأعملوا بما في ولا تتجاوزوه .

وجاء معداً بالباء في قوله تعالى: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا)[5]

فكشفت "الباء" بما فيها من معنى المصاحبة عن دخائل نفوس المشركين وما صحب حالة الاستماع من مكر واستخفاف فهم يتظاهرون بالاستماع ولكنهم مشغولون بتدبير ما يرمون به الرسول صلى الله عليه وسلم، كما هو واضح في قوله "وإذ هم نجوى"[6].

قال أبو حيان لم يقل "يستمعونه ولا يستمعونك" لما كان الغرض ليس الإخبار عن الاستماع فقط ، وكأنه مضمنا أن الاستماع كان عن طريق الضمير بأن يقولوا مجنون أو مسحور جاء الاستماع بـ"الباء وإلى" ليعلم أن الاستماع ليس المراد به تفهم المسموع دون هذا القصد[7] .

وكذلك الفعل "رغب" يتعدى بـ"إلى"، "وفي"، "وعن"، "والباء"، ومع كل حرف يتعدى به تتعدد له دلالة غير دلالته مع الحرف الآخر.

يقول الراغب:

"أصل الرغبة السعة في الشيء يقال: "رغب الشيء اتسع، وحوض رغيب وفلان رغيب الجون، وفرس رغيب العدو"، والرغبة والرغب السعة في الإرادة"[8].

---

(1) بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، 1976م ص 32.

(2) سورة الصافات، 8.

(3) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، ط3، 1407ه ، ج 3، ص 236.

(4) سورة الأعراف، الآية 204.

(5) سورة الإسراء، الآية 47

(6) الكشاف، ج 2، ص 139.

(7) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ ، ج 6، ص 43.

(8) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412 هـ ، ص 198.

قال تعالى: (إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)[1]

وإن قيل رغب عنه اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه نحو قوله تعالى: (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ) [2]

[2]

وقول تعالى: (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ)[3].

وفي قوله تعالى: (وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ) [4]

يفسر الزمخشري الرغبة بما يفيد الضن والبخل بأن يتخلفوا عن رسول الله.

فانظر كيف أفاد فعل السمع والرغبة كل هذه المعاني المختلفة التي وصلت إلى حد التناقض بينها؟ إنها الحروف، بما تخلقه من معانيها على معاني متعلقاتها وأثر العدوة الحاصلة بالارتباط بين الحرف وما وصل به.

فرغب حين عد إلى المرغوب بـ"في" الظرفية التي تقتضي أن المرغوب احتوى الرغبة كما يحتوي الظرف على المظروف، أنبأ ذلك عن معنى الحرص، وكأنه أفرغ كل رغبته فيه.

وحين عدي بـ"إلى" التي تدل على انتهاء الغاية أفاد الظرف للراغب إلى مرغوبه وتوجيهه إليه وانصرافه عما عداه.

وحين عدي بحرف المجاورة دلّ بما اكتسبه من معنى هذا الحرف عن الانصراف عن الشيء وتجاوره.

وحين عدي بالباء التي يفيد الإلصاق دل على الضن والبخل بها؛ لأن إلصاق الرغبة في الأنفس يدل على شدة الارتباط بها وعدم التفريط فيها.

فهذه المعاني التي تواردت على فعل الرغبة إنما اتسع لها بحكم ما اكتسبه من معاني الحروف التي وصل بها وما أشاعته في همن دلالاتها.

هذه اللطائف التي تعرضت للنظم بسب الحروف هي التي جعلت المرادي وغيره ينتبهون إلى خطر دراستها والاحتياج إلى الصبر في التقاط شواردها.

فكم ذلت في سبيلها أقدام راسخة وأحجمت أسرارها عن عيون متأملة فاحصة ولا أدل على ذلك مما رواه الخطابي عن مالك بن دينار قال:

"جمعنا الحسن لعرض المصاحف أنا وأبا العالية الرماحي ونصر بن عاصم الليثي وعاصم" فقال رجل: "يا أبا العالية قول الله تعالى في كتابه: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)[5] ما هذا السهو؟ فقال:

(1) سورة القلم، الآية 32.
(2) سورة البقرة، الآية 130.
(3) سورة مريم، الآية 46.
(4) سورة التوبة، الآية 120.
(5) سورة الماعون، الآيات 4-5.

فقال: الذي لا يدري عن كم ينصرف عن شفع أو عن وتر، فقال الحسن: مه يا أبا العالية ليس هذا، بل الذين سهو عن ميقاتها حتى تفوتهم، قال الحسن: ألا ترى قوله عز وجل "عن صلاتهم"[1] .

ويعلق الخطابي عن ذلك بقوله:

"فقلت: وأنما أتى أبا العالية في هذا الحديث حيث لم يفرق عن حرف "عن" و"في" فتنبه له الحسن فقال: "ألا ترى عن قوله "عن صلاتهم" يؤيد أن سهوهم الذي هو الغلط في العدد، إنما هو يعرض في الصلاة بعد ملابستها عن صلاتهم دل على أن المراد بها ذهاب الوقت[2].

وقد نعى جار الله الزمخشري على من يهملون الفروق الدقيقة بين معاني الحروف وما ترتب عليها من اختلاف دلالات التركيب خاصة في نظم الكتاب العزيز فقال: "فإن قلت يجري لأجلٍ مسمى، ويجري إلى أجلٍ مسمى" أهو من تعاقب الحرفين، قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع ضيق العطن، ولكن المعنيين عن الانتهاء والاختصاص، فكل واحد منهما ملائم لصحة الغرض؛ لأن قولك: يجري لأجلٍ مسمى معناه يبلغه وينتهي إليه[3] .

وقولك: يجري إلى أجل مسمى يريد يجري لإدراك أجل مسمى، وتجعل الجري مختصاً لإدراك أجل مسمى.

وكذلك قولك: "سعيت لفلان"، وقولك: سعيت إلى فلان"، والفرق بينهما واضح حيث الأول يفيد معنى السعي من أجلهم والثاني: يعني القصد إليهم والانتهاء عنده وهو ذاك الفرق في قوله تعالى: (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)[4]

وبين قوله تعالى: (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ)[5] .

فالسعي للآخرة يعني العمل من أجلها والاستعداد لها بصالح العمل.

والسعي إلى الصلاة يراد به التوجه إليها والقصد إلى بيوت الله لأدائها.

وقف كثير من أئمة اللغة وأرباب البيان أمام روعة النظم ودقة استخدام الحروف في مواضعها وتتابعت على ألسنتهم وأقلامهم أسرارها ونكاتها وذلك كما في قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا)[6]

وقوله تعالى:(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا)[7]

وبتأمل ما جاء في هذه الصور من حروف الاستعلاء "على" انها إخبار من الله تعالى بعدم قبولهم للهداية وقد جاءت كلها معا مخاطبة للرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له وتخفيف لآلامه وحزنه على عدم استجابة

(1) بيان إعجاز القرآن للخطابي، ص 32- 33.
(2) المصدر السابق، ص 33.
(3) الكشاف، للزمخشري، ج 3، ص 273.
(4) سورة الإسراء، الآية 19.
(5) سورة الجمعة، الآية 9.
(6) سورة الأنعام، الآية 25.
(7) سورة الكهف، الآية 57.

قومه له وفضهم قبول دعوته، وكأنه يقول له لست مسؤولاً عن إعراضهم، وهل بمقدورك ان تسمع الصم وتصل بدعوتك إلى قلوب طبع اله عليها.

وإخبار الله تعالى لعدم نفاذ الحق إلى سماع الكافرين وإشراق نور الهداية على قلوبهم يكفي فيه جعل الأكنة مستعلية على القلوب دالة على أنها أغطية تحول دون وصول الهداية إليها.

ومنه قوله تعالى: (قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)[1]

فقد جاءت على ألسنة المشركين مكتسبة ثوبا من المبالغة في رفض الاستماع إلى الوحي معلنين أن حرفا واحداً لن ينفذ منه إلى أسماعهم وأن قلوبهم قد أحاطت بها أغطية كثيفة وشملتها اشتمال الحروف بحيث لن تجد دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ثغرة تنفذ منها إلى هذه القلوب.

وإمعانا في تكثيف الموانع والحواجز أعلنوا أنهم أقاموا بينهم وبينهم حجاباً يمنع وصول صوته إليهم لهذا كانت "في" الدالة على احتواء الأكنة للقلوب وإحاطتها بها وهي الأنسب لهذا المقام.

يقول أبو حيان:

إن "في "أبلغ في هذا الموضع من "على" لأنهم قصدوا إفراط عدم القبول لحصول قلوبهم في أكنة احتوت عليها احتواء الظرف على المظروف لا يتمكن أن يصل إليها الناس[2] .

وقال تعالى: (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)[3]

والفلك هنا وفي أماكن عدة صالحة للظرفية والاستهلاك باعتبارها وعاءً لمن يكون فيها، حاملة لمن يستعليها مع اختلاف في نظم كل منها ودلالاته في التعدية إليها بحرف الوعاء تارة وبحرف الاستعلاء تارة أخرى، مما يكشف أسراراً توجب وقوع كل موقعه.

فالمواضع التي تستدعي حرف الظرفية وتنم عليه في سورة يس وغيرها من السور حيث أتت في اكثر من أحد عشر موضعا في الكتاب العزيز فيها يمتن الله سبحانه وتعالى على عباده لتنجيتهم من خطر الطوفان وأمواج عاتية بدل الله تعالى فيها خوفهم أمنا، وأحاطهم بعنايته ورحمته فإذا هم مستقرون في الفك آمنون فيها وكأنها قد تحولت إلى مساكن على أرض يابسة تحميهم من أمواج تتقاذفها وأمواج تحيط بها وسيول تنهمر من فوقهم ومن ثم كان الأدل على هذا المن أن يعبر به مما يدل على تمكنهم واستقرارهم فيها.

وحرف حرف الظرفية "في" هو الذي يكشف هذا الاستقرار والإحاطة، لذلك جيء به في هذه الأماكن ولهذه الدلالات، فكان أبلغ من حرف الاستعلاء "على" الذي جاء في أكثر من ستة مواضع في الذكر الحكيم اتحدت فيها صور النظم.

(1) سورة هود، الآية 40.
(2) البحر المحيط، لأبي حيان، ج 7، ص 484.
(3) سورة يس، الآية 41.

وجاء الحديث عن الحمل في الفلك تابعا للحديث عن الحمل على ظهور الأنعام كما ففي قوله تعالى: (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)[1] .

وكذلك قوله تعالى: (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)[2]

فالاستعلاء فيها هو الأنسب معنىً والأوفق لفظاً ذلك لأن الغرض في الموضعين هو التذكرة بنعمة الله تعالى في خلق الأنعام وما أوعده فيها من منافع للإنسان شرب من بطونها وأكلا من لحومها ووصلا على ظهورها.

والأصل في الحمل أن يتعدى بـ"على" لأن المحمول يستعلى على ظهر الحامل إلا إذا أريد الدلالة على أن الحامل صار وعاء للمحمول لغرض يستدعيه النظم كما سبق.

ثم ذكر السفن تتميما وتبعا للغرض من الحمل فيها، وهو بيان نعم الله في اعتلاء ظهورها والانتقال بها إلى حيث يريدون.

فالمقام في بيان فوائد الأنعام والسفن، وفي هذا تناسب في المعنى واللفظ ومزاوجة، فالتلائم بين الحمل على ظهور الأنعام والفلك حيث لا تصلح وعاء للإنسان.

فلو أن "على" و "في" يتساويان في الدخول على الفلك لكانت مراعاةً لحسن اللفظي وحدها داعيا لإيثار حرف الاستعلاء، فما بالك وهو الأدل والأصدق للمعنى[3] .

مقاصد التضمين البلاغية:

التضمين البياني: "هو التوسع في استعمال لفظ توسعا يجعله مؤديا معنى لفظ أخر فيعطى الأول حكم الثاني".

كما عرف بأنه اللفظ فيه يحمل استعارة أو مجازاً مرسل.

إنّ الفعل الأول باقياً على حقيقته، والمعنى غير الوضعي المضمن مستفاد من محذوف تدل عليه صلته من الجار والمجرور أو معموله أو أي قرينة حالية أو لفظية.

ومن هنا يتضح أن مدار التضمين البلاغي هو المجاز والتوسع في اللغة بحيث تعطى اللغة فرصة للخروج إلى معاني أوسع تعبيراً عن المعاني الكثيرة الكامنة في الذهن لذلك نرى أن المجاز قد كثر استخدامه في القرآن ولقد اتفق العلماء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة، ولو وجب خلو القرآن من المجاز لو وجب خلوه من الحذف والتوكيد وتكنية القصص وغيرها.

وقد تحدث العز بن عبد السلام عن المجاز في كتابه[4] وقسمه إلى قسمين:

1. المجاز في التركيب: ويسمى مجاز الإسناد أو المجاز العقلي وعلاقته الملابسة، وذلك أن يسند الفعل أو شبهه إلى غير ما هو له أصالةً لملابسته له كقول تعالى: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا)[1]

(1) سورة المؤمنون، الآيات 21-22.
(2) سورة غافر، الآية 80.
(3) الكشاف، للزمخشري، ج 3، ص 389.
(4) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، العز بن عبد السلام، تحقيق محمد مصطفى بن الحاج، طرابلس، كلية الدعوة الإسلامية، ط 1، 1992 م، ص 18.

2. فقد نسبت الزيادة وهي فعل الله تعالى إلى الآيات لكونها سببا لها.

وفي قوله تعالى: (يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ)[2]

فقد نسب الذبح وهو فعل الأعوان إلى فرعون.

ومنه قوله تعالى: (فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ)[3]

أي عزم عليه بدليل إذا عزمت.

3. المجاز في المفرد: ويسمى المجاز اللغوي وهو استعمال اللفظ لغير ما وضع له أولاً وأنواعه كثيرة:

أ. الحذف: وهو نوع من أنواع الإيجاز الذي يعتبر مبحث مهم من مباحث البلاغة، والإيجاز هو الكلام القليل وإذا كان بعض من كلام أطول فهو إيجاز حذف وإن كان كلاما يعطي معنىً أطول منه فهو إيجاز قصر. قال بعضهم القصر هو تكثير المعنى بقليل وسبب حسنه إنه يدل على التمكن في الفصاحة،

ب. إطلاق اسم الجزء على الكل: وذلك مثل قوله تعالى: (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ)[4]

أي ذاته.

ومنه قوله تعالى: (فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)[5]

أي ولوا ذواتكم.

ت. إطلاق اسم الكل على الجزء: ومنه قوله تعالى: (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ)[6]

أي أناملهم ونكتة التعبير عنها بالأصابع الإشارة على إدخالها على غير المعتاد مبالغة من الفرار كأنهم جعلوا فيها الأصابع.

ومنه قوله تعالى: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)[7]

فقد أطلق الشهر وهو اسم لثلاثين ليلة وأريد جزء منه.

ومن وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم وبديع الإعجاز في قوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ)[8]

ذلك أن الله أراد أن يعظم من شأن القصاص في بيئة تستهين بالأنفس وتبني أمجادها وفخرها على كثرة ما تسحق من أرواح.

والقصاص رادع يمنع من الإقدام على القتل فهو سبب من أسباب الحياة.

---

(1) سورة الأنفال، الآية 2.
(2) سورة القصص، الآية 4.
(3) سورة محمد، الآية 21.
(4) سورة الرحمن، الآية 27.
(5) سورة البقرة، الآية 150.
(6) سورة البقرة، الآية 19.
(7) سورة البقرة، الآية 158.
(8) سورة البقرة، الآية 179.

وفي دخول حرف الظرفية "في" ما يجعله سياجا للحياة وحصناً يحميها ويصونها ويشتملها اشتمال الوعاء للموعى به.

فهو مجاز بالاستعارة مشبه فيه القصاص بالظرف والحياة بالمظروف.

وهو باب من أبواب إيجاز الحذف والاختصار الذي يعتبر قمة البلاغة.

المراجع:

1. الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، العز بن عبد السلام، تحقيق محمد مصطفى بن الحاج، طرابلس، كلية الدعوة الإسلامية، ط 1، 1992 م
2. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنبار، المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى 1424هـ- 2003م
3. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ
4. بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة: الثالثة، 1976م
5. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة ،
6. ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهي، دار المعارف، مصر، 1977 م
7. ديوان زهير بن أبي سلمى: شرحه وقدم له: أ. علي حسين فاعور، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط1، 1408-1988م
8. ديوان سويد بن أبي كاهل
9. الكافي في علم العروض والقوافي، للخطيب التبريزي، تحقيق الحساني عبد الله، بيروت عالم المعرفة، 1900 م.
10. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، ط3، 1407ه
11. لسان العرب، ابن منظور، الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد ابن منظور بن مكرم بن الإفريقى، دار صادر – بيروت، بدون، تاريخ طبع باب الضاد مادة "ضمن
12. مجلة المجمع اللغوي بالقاهرة، دورة الانعقاد الأولى
13. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق مازن المبارك، ومحمد علي، ط 5، مؤسسة الصادق 378 ه

14. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - 1412 هـ

GCNU Journal ISSN: 1858-6228